قبل ان ينصح به المريض . فليس اذن ما نحتاج اليه هو معرفة « الكيفية » التي بلغت بها النظامات الى الحالة التي نراها عليها، بل ان ما نحتاج اليه هو معرفة « الآثار » « التي تنشأ » عنها في الحالات القائمة من حولنا . انّا لا نحتاج الى التاريخ بمعناه المعروف . بل نحتاج الى سبيل ينفذ به بصرنا الى اعماق « الحاضر» . اذ أية فائدة نجنيها وأي نفع نرقبهُ من معرفتنا تاريخ الاسترقاق وكيف نشأ وانتشر ، وكيف ضعف وزال أثرهُ من أية بقعة من بقاع الارض وخلال اي زمن من ازمان التاريخ ؟ في حين أن ما نريد ان نعرف ماهيتهُ هي آثاره المباشرة الدائمة على طبيعة الانسان الادبية في مختلف الامم وعلى تتالي الاجيال . او ماذا يعود علينا من نفع اذا نحن عرفنا تاريخ انتشار اليهودية او المسيحية او الاسلام والادوار التي مرت بها تلك العقائد العظمى حتى ثبتت أصولها بين الامم التي تدين بها ؟ بيد ان وجه الفائدة الصحيحة ينحصر في معرفة الآثار التي خلفتها تلك العقائد السماوية في الأُمم التي دانت بها وخضعت لسلطانها . أية فائدة في ان نعرف تاريخ الجلاد بين الارستوقراطية والديمقراطية اذا جهلنا مع معرفة التاريخ حقيقة الاثر الذي يبعثهُ كل من النظامين في روح الجماعات ومقدار اثر كليهما في اخلاق الناس ومشاعرهم وحياتهم العامة ؟

من هنا يتضح اننا اذا تعذر علينا معرفة الآثار التي تتركها النظامات في حالات الاجتماع ، ماديًّا وعقليًّا واخلاقيًّا ، استعصى علينا ان نقود خطوات الجماعات في المستقبل في سبيل الامن والسلام

اما اذا اردنا أن نفقه حقيقة المؤثرات الطاغية على وجه الحياة في زمان ما ، انبغى لنا ان نتقصّى الفكرات والعواطف والمعتقدات السارية في روع الناس في « الحاضر » وما تلك الاشياء ، الفكرات والعواطف والمعتقدات وما اليها ، في حياة الجماهير الاّ النتاج المباشر لصور الدين والمذاهب التي يعيشون خاضعين لسلطانها وسيطرتها ، وان شئت فقل لنظاماتهم العامة . ولا خفاء ان الصفات الادبية والعقلية الخاصة بامة من الامم ليست في الواقع الاّ مجموعة « الآثار » التي تخلفها النظامات المختلفة . ومع كل هذا فانا لا نستطيع ان نفقه الحالات القائمة في حياة جماعة من الجماعات او امة من الامم ، قبل أن نفرق بين « الآثار» المخلفة عن كل من النظامات القائمة فيها ، والتي نعتقد بحق انها قسم من طبيعتها الكامنة في تضاعيف فطرتها

اسماعيل مظهر